

القصيدة العربية القديمة، قراءة في المضامين والأشكال

باقي أحمد

جامعة سيدي بلعباس

لقد ارتبط الشعر العربي بالإنشاد والغناء ، وهو ما نتج عنه امتلاك السامع ولبنة التأثير فيه ، فالبيت الشعري القديم لبنة مستقلة بذاتها أي كل بيت له دلالة الخاصة به بمعزل عن الأبيات الأخرى فهو " ...الركن البنائي في هويته (الشعر) من حيث هو حدث منطوق و مسموع أو لنقل أن أدائية الشعر الخليلي لا يتحدد جوهرها إلا في نطاق البيت لأنه اللبنة المتجانسة في بناء سرح القصيدة ، وهو بذلك وحدتها الإيقاعية لمن يتلو الشعر، وهو أيضا وحدتها النغمية لمن يصغي إلى تلاوته ، فالبيت خيز مقطعي من حيث هو سلسلة من الكلام الملفوظ و لكنه في حقيقته الفنية فضاء صوتي يستحيل إلى فضاء ... "1

لقد خص النقاد العرب " البيت " بعناية فائقة لكونه عنصر فعال في بنية القصيدة فوصفوا " : البيت من الشعر كالبيت من الابنية : قراره الطبع و سمكه الرواية و دعائمه العلم ، وبابه الدرية ، وساكته المعنى ، ولا خير في بيت غير مسكون ... و صارت الأعاريض والقوافي ك الموازين و الأمثلة للأبنية ، أو كالأواخي و الأوتاد للأخبية ، فأما سوى ذلك من محاسن الشعر ، فإنما هو زينة مستأنفة و لو لم تكن لاستغنى عنها ... "2

فالنقد القديم ركز على ثلاثة أمور تعد مواد أولية في تفجير الموهبة الشعرية وهي الطبع و الرواية و العلم . وهذه المصادر تعمل على تأصيل

للمصادر ثلاثية أساسية في العملية الإبداعية متمثلة في المعنى و الوزن و القافية .

أما حازم القرطاجني فقد أعطى الأولوية للملتقى الذي يلعب دورا فعالا في تأويل الحسن الذي يزيد من حماسية القصيدة ، فالببيت في نظره منحصر على ثلاث وحدات :

1- الوحدات و الأنساق الوزنية

2- القافية

3- بناء البيت على أساس الاعتدال و الإستواء

فالنقد القديم ركز على البيت كوحدة مستقلة بذاتها تعمل على ميلاد قصيدة مطعمة بالمعاني و الأمثال و غير ذلك من الأغراض الشعرية مما أدى بالنقد القديم إلى إختلاف في تسمية القصيدة و تحديد عدد أبياتها فابن رشيق تحدث عن رؤى في تحديد القصيدة و هو يرجح بأن القصيدة هي ما بلغت السبعة أبيات : "... إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة و لهذا كان الإبطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس و من الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو بببيت واحد..."⁴

فالقصيدة القديمة تبنى على مستويين :

1- لفظي

2- إيقاعي

والأمر المتحكم في عملية بناء القصيدة فهو المعنى و هذا ما أكدته ابن طباطبا

"... إن الشاعر إذا أراد بناء قصيدة تخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره ثرا و أعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه و القوافي التي توافقه و الوزن الذي يسلس له القول ..."⁵

فنظرة ابن طباطبا في بناء القصيدة تقوم على المعنى السابق للمستويين اللفظي و الإيقاعي .

و يؤكد حازم القرطاجني أن القصيدة في حد ذاتها هي عبارة عن مجموعة من المباحث وعلى الشاعر الفحل أن يرتبها و يلاحم المباحث فيما بينها تلاحما متلاصقا لتظهر في نهايتها حسنة البنية ، و متناسبة الأغراض و مرتبة المعاني ، و الانتقال من حال إلى حال داخل هاذم المباحث التي تعد وحدات متماثلة⁶

فابن رشيق استطاع أن يعبر عن مفهوم بناء الشعر بأنه "... النظم ، صناعة آلتها الطبع ، و الطبع هو إستكمال للنفي في فهم أسرار الكلام و البصيرة بالمذاهب و الأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن يتحى به نحوها فإذا أحاط بذلك علما قوية على صوغ الكلام بحسبه عملا و كان التفوذ في مقاصد النظم و أغراضه و حسن التصرف في مذاهبه و إنغائه ، إنما يكونان بقوى فكرية و إهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكر الشعراء..."⁷

و رغم وضوح هذه الفكرة المتعلقة ببناء القصيدة فإن النقد القديم ظل تجزئيا في أحكامه و نظراته اتجاه القصيدة العربية فنجد ثعلب في كتابه قواعد الشعر يقدم لنا مصطلحات خاصة وهي عنده "...الآيات المعدلة / الآيات الضر/ الآيات المحجلة / الآيات المرجلة..."⁸

وهذه الآيات تعمل على تماسك القصيدة ، فالتقاد القدامى ألحوا و بشدة على سلك أساليب معينة و على وجود عناصر نصية بنائية تكون أداة ربط بين المنشد و السامع

فاشترط النقد ثلاثة عناصر تشكل فيما بينها حلقة ربط و تواصل بين

المبدع و الملقى :

1- المطلع :

إهتم النقاد القدامى بمطلع القصيدة لأنهم يرون في الابتداء و دلائل على البيان و مثلوا الشعر كالقفل وأوله مفتاحه و لهذا انكب اهتمامهم للمطلع بحكم انه اول ما يقع في السمع من القصيدة من القصيدة و التأثير المباشر في نفسية المتلقي - فأكد بدر الدين بن مالك - على وجوب المحافظة على هذه الشروط :

- عذوبة اللفظ
- سهولة السبك
- صحة المعاني
- تناسب القسمة
- تجنب ما يفحش لفظه أو يستقده⁹

2- مقدمة القصيدة :

لقد اهتم النقاد القدامى بالمقدمات في الشعر العربي و هذا الاهتمام كان منكبا على مقدمات معينة طلية و غزلية و خمرية ... فصارت بفضل هذا الحكم المكرس شرطا وقيدا في بناء القصيدة .

3- التخلص :

لقد بنيت القصيدة الجاهلية - في القالب - على تعدد الاغراض فكان على الشعراء

الجدد ان يتبعوا هذا النمط و بما ان النقاد اهتموا بشكل القصيدة و الدقة في الانتقال والخروج من غرض الى اخر و من جزء الى جزء خروجاً لا نحس به

ونشعر من خلاله بوحدة القصيدة فقد اعتنوا بالتخلص من المقدمة الى
غرض يعرفه - حمودي -

حسن التخلص: "...أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى الى معنى اخر
يتعلق بمدوحه بتخلص سهل يختلسه اختلاسا رشيقا، رقيق المعنى بحيث لا
يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول الا وقد وقع في الثاني لشدة الممازجة
والالتئام والانسجام بينهما..."¹⁰
ولقد عاب النقاد القدامى على الشعراء الذين لا يحسنون حسن
التخلص وعدوه

- إقتطاب - بمعنى قطع الشاعر كلامه و الإلتفاف في كلام آخر لا
علاقة له بالكلام الأول.

4- الخاتمة :

اصطلح النقاد على خاتمة القصيدة بالمقطع لأنها قفل المطلع. و نهاية ما
بدأ و آخر ما يبقى من القصيدة للأسماع و فيها يفهم المعنى ، فعلى الشاعر
أن يحترز من أمور تخل بالقصيدة كالألفاظ الغريبة و الكريهة و المعنى الذي
يستتفر منه ذوي الطبائع السليمة.

فالاعتناء بهذا الموضوع واجب و حسن التصرف فيه لازم فهو بمثابة
نهاية المقصد و اشترطوا في الختام أن يتوفر فيه واحد من بين الشروط التالية :
1- أن يستطيع الشاعر أن يختم أغراضه اختتاماً مناسباً لكل غرض ولا
يُشعر السامع بهذه الحركة الديناميكية داخل القصيدة .

2- حسن اختيار الألفاظ المستعذبة و التي تحرك نفسية السامع و يتغذى
منه خياله ، و التأليف جزلاً متناسقاً يناسب العملية البنائية التي تعمل على
تأصيل لوحدة متكاملة متجانسة .

3- أن يكون أجود بيت في القصيدة و أدخل في المعنى الذي قصد له الشاعر¹¹ وهناك من النقاد من أقر بجمع هذه الأغراض الثالث في القصيدة الواحدة (المطلع ، والملخص ، والمقطع ، و يقوم تصور النقاد في بناء القصيدة على مراعاة المقام

و اقتضاب الحال فنظروا إلى القصيدة من زوايا مختلفة تعمل على ميلاد قصيدة متماسكة كتب لها الخلود و الحياة عبر الأجيال المتلاحقة فبحثوا في قضايا الطول و القصر و مجرى الأغراض في الإيجاز والاطناب لذا يحدد - علي بن عيسى الرمانى - الإيجاز بثلاثة أضرب :

1- إيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد

2- إيجاز باعتماد الغرض دون ما تشعب

3- إيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبح¹² كما نجد بعض من النقاد اهتموا بالقصيدة من حيث غرضها فركزوا على المدح و الهجاء ، كغرضين متعلقين بالتقصير و التطويل فتتج على هذا الصراع المتعلق بنمط القصيدة إلى طرح مسألة القصيدة الطويلة و القصيرة و المتوسطة

:"...فالقصيدة القصيرة تمثل فيها الغنائية أي العاطفية الواحدة المحددة ، اما القصيدة الطويلة فيلزمها إلى جانب العواطف المفردة المحددة الكثيرة ، الفكرة العامة التي تسيطر على الجميع و توجهه..."¹³

4- لقد ظلت هذه العناصر الأساسية في بناء القصيدة عند النقاد القدامى وهي لا تزال قائمة لحد الآن إلا أن التحولات الناتجة عن الرؤى الحديثة و الفلسفة اليقينية زلزلت الكثير من المسلمات النقدية القديمة فأصبح

مفهوم التحديث عنصرا فعالا في إحداث التغيير خاصة على مستوى الرؤيا و المفاهيم و البناء .

الإحالات

- (1) عبد السلام المهدي ، الشعر و متغيرات المرحلة ، الدار العربية للكتاب طرابلس ، تونس ، ط2. 1982 ، ص 17/16 .
- (2) ابن رشيق ، العمدة ، ج 1 ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط4 ، دار الجيل ، بيروت ، 1972 ، ص 121 .
- (3) محمد بنيس ، لبشر العربي الحديث ، بنائه لهذا الاتجاه " التقليدية " ، دار توفال ط1 ، المغرب 1989 ، ص 124 .
- (4) ابن رشيق ، العمدة ، ج 1 ، ص 188/189 .
- (5) ابن طباطبة ، عيار الشعر ، تح : عباس عبد الساتر ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1989 ، ص 11 .
- (6) حازم القرطاجني ، منهاج البائلاء و سراج الأدباء ، تح : محمد الحبيب ابن خوجة ، دار الغرب الإسلامي ، ط2 ، بيروت 1981 ص 288/297 .
- (7) المرجع السابق ص 18/19 .
- (8) محمد عبد المطلب مصطفى ، اتجاهات النقد ، دار الأندلس ، ط1 ، 1984 ص 166 .
- (9) محمد عبد المطلب مصطفى ، اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع دار الأندلس ، ط1 ، بيروت 1984 ص 167 .
- (10) يوسف بكار ، بناء القصيدة في النقد العربي القديم ، دار الأندلس ، بيروت 1982 ص 222 .
- (11) المرجع السابق ص 229 .
- (12) المرجع السابق ص 241 .
- (13) عز الدين إسماعيل ، الأنس الجمالية في النقد العربي ، دار الفكر العربي ، ط3 ، 1974 ص 268 .